فضيلة الصدق

إن الإسلام فيما أوصى من تعاليم، وفيما جاء به من توجيهات استهدف إنسانية الإنسان ليصل بالإنسان إلى الحياة الإنسانية، ويرتفع بمستواها. والإسلام منهج متكامل رفيع ورائد فى قيادة البشر وهدايتهم، ومنحهم غاية السعادة فى النفس والمجتمع والدين والدنيا والآخرة، وذلك بفضل ما جاء به الإسلام من جلال الوسيلة وكفاية الفطرة، والوفاء بالغاية.

ومن خير صور العطاء التى أهداها الإسلام ومنحها للبشر ما جاءهم به من كريم الأخلاق وباهر السجايا، ما يمكن أن يعتبر منهجاً أصيلاً من حيث الاستيعاب لمختلف أنماط السلوك البشرى والشمولة لحياة الناس، ومن حيث الاستغراق لكل أغوار النفس الإنسانية وأعماقها وشتى الخواطر الواردة عليها.

والنتيجة التى تترتب على ترك الإنسان من غير توجيه، ومن غير تدخل من الإسلام هى فقدان الإرادة، والشخصية الإنسانية، فُقدْان المقاومة والمغالبة، وفقدان التمييز والاختيار، ثم الخصومة والضياع، ومن هنا كانت رسالة الإسلام طريق يوصل الإنسان إلى أن يكون ذا قوة واستطاعة، وذا ارتباط بالمجتمع، كانت رسالة لإيقاظ الوعى بالذات والوعى بالمجتمع.

والصدق فى طليعة الأخلاق التى جاء بها الإسلام ليكون الإنسان صاحب وجدان سليم وإرادة واستطاعة. والصدق أصل أصيل من أُصول الأخلاق، وخلة من أهم الخلال.

والصدق مطابقة الخبر للمخبر عنه وللضمير، والكذب بخلافه. وهو من أهم الفضائل التى تقوم عليها المجتمعات. بل هو ضرورة للاجتماع الإنسانى، ولولاه ما قامت شريعة، ولا استنارت سبل الهداية، ولا قام صرح الحضارة. ولا خلدت العلوم والمعارف، ولفسد الاجتماع الإنسانى من أساسه.

ولقد بلغ من خطورة الصدق وجلال شأنه أن اتصف به الحق تبارك وتعالى فليس فى الوجود كله، من هو أصدق من الله تعالى، وَعْداً، ولا حديثا ولا قولا، ولا أدل على ذلك من القرآن الكريم الذى أوحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ إذ هو آية الآيات على صدق الله عز وجل فى كل كلمة، ولفظه، ومعانيه، وموضوعاته، وأساليبه، وأهدافه، وغاياته، وسائر مجالاته، وشتى شئون الحياة التى جاءَ يطلبها ويعالجها.

ولقد برهنت على صدق القرآن الكريم مجريات الأحداث ومسيرة التاريخ فى الأفراد والأُمم والشعوب والجماعات والمجتمعات.

وليس هناك من شىءٍ أنفع فى تربيه البشر وإصلاح الشعوب وتقويم الفطر من الصدق، والقيادة الصالحة التى يسير الناس على نهجها. وإذا كان هذا أمراً لازماً لهولاءِ وهم يقودون البشر أو يصلحون الشعوب، فإنه يصير أمراً لا غنى عنه وضرورياً لا انفكاك منه بالنسبة للأنبياء والمرسلين الذين حملهم الله أمانة الدين وريادة الناس وإصلاحهم فى كل جوانب حياتهم الفطرية، والنفسية، والخلقية، والسلوكية، والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية.

وليس هناك من خلة تسبق خلة الصدق، إذ الصدق أبرز الفضائل وأساسها بل وألزمها للشخصية، ومنزلة الصدق من أعظم المنازل وهو الطريق الأقوم وروح الأعمال، والحامل على اقتحام الأهوال.

ولقد كانت فضيلة الصدق منذ القدم خلق الأنبياء، والحكماءِ، وكان أول جهر النبى محمد ﷺ بالدعوة معتمداً على الصدق الذى عرف به بين قومه. إذ قال لهم: أرأيتم إن أخبرتكم أن خلف هذا الوادى خيلا تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى؟ فقالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤثرون الصدق مهما كان وراءَه من الألم. والصدق مطابقة القول: «الضمير والمخبر عنه معاً» والصدِّيق الرجل الكثير الصدق، وقيل: الصادق من لم يصدر منه

الكذب أصلاً، وقيل من لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق . والصادق الاسم اللازم من الصدق وهو من صدق فى أقواله.

جاءَ فى كتاب بصائر ذوى التمييز للفيروزأبادى أن الشيخ عبد الله الأنصارى قال: الصدق اسم لحقيقة الشيءِ حصولاً ووجوداً والصدق هو حصول الشيءِ وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه كما يقال عزيمة صادقة إذا كانت قوية تامة وكذلك محبة صادقة وإرادة صادقة وكذلك حلاوة صادقة إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيءٌ. ومن هذا أيضاً صدق الخبر لأنه وجد المخبر به بتمام حقيقته فى ذهن السامع.

وإذا كان الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والمظهر للمخبر ، والشكل للجوهر، فإنه لم يأت منهج يدعو إلى الصدق بصدق كما جاءَ الإسلام يدعو إليه بحيث يأخذ به المؤمنون أنفسهم، يتعايشون فيما بينهم على هداه بالكلمة السديدة، والقولة الصادقة، والفعل القويم. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾**﴾[1].

فالإسلام يهتف بالصدق ويأمر به، ويدعو إليه كفضيلة كبرى من أوليات الفضائل التى لا تصلح حياة البشر، ولا تستقر إلا بها، ولا ينعمون إلا فى رحاب الأخذ بها. والتطبيق لها. وللصدق أنواع ثلاثة:

١ ـ صدق المرءِ مع نفسه. وذلك بأن يجنبها مزالق العيش فى الأوهام والخيالات وأحلام اليقظة، والأمانى الكاذبة، وأن يعيش فى الواقع ويواجهه بشجاعة وثبات.

٢ ـ صدق المرء مع ربه، وذلك بأن يعرف لله حقه فيتقيه حق التقوى ويعبده حق العبادة، وينضوى فى سلك طاعته قدر الاستطاعة.

---

(١) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

٣ ـ صدق المرء مع الناس. وذلك بأن يقرر ما يعتقد أنه الحق فى قوله وفعله وصمته.

والصدق أساس لفضائل كثيرة لأن الصادق لابد أن يكون شجاعًا، وأمينًا وحافظًا للعهود، وعادلاً فى أحكامه، إلى غير ذلك من فضائل كثيرة تحتويها فضيلة الصدق وتشتمل عليها.

وهناك الصدق فى الأقوال، والصدق فى الأفعال، والصدق فى الغايات. والمؤمن الصادق هو المتصف بالصدق فى هذه النواحى كلها. فالدعوة إلى الصدق وإلى التمسك به دعوة تجد بين يديها المثل الواقع للخير العظيم الذى يناله الصادقون بصدقهم، وإن احتمل الصادقون فى سبيل كلمة الحق شيئًا من الأذى والضر فى أول الأمر فإن العاقبة دائمًا لهم، وهى عاقبة تهيئُ لصاحبها الفوز والفلاح. والحق أن أى مجتمع من المجتمعات لا تصلح له حياة ولا يستقر له وضع إلا إذا أقام حياته على الصدق، والتزم به، فغدا سَديدًا فى عمله مصيبًا فى قوله، سويًا فى تفكيره، مستقيمًا فى سلوكه، صادقًا مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره من الأمم والمجتمعات.

وهذا من غير شك إذا انطبعت عليه أخلاق الأمة وحرصت عليه فإنه يقودها إلى مقام البر، كلمة الحق الجامعة لأطراف الخير وفنونه فى النفس والفرد والمجتمع فى الدين والدنيا، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾**﴾[1].

فأُولئك: هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصى التى توجب خذلان الله فى الدنيا وعذابه فى الآخرة، وأُولئك هم الذين صدقوا

(١) البقرة: ١٧٧.

فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال، فالصدق دليل الخير والهادى إليه فى كل آفاق البر، ومجالات الحق، وميادين الدعوة إليه. والصديقون هم أبرز العلامات فى كل أفق من آفاق الحياة، الأمر الذى يبلغ بهم وبالحياة درجة الطمأنينة والثقة واليقين. وإن مجتمعًا يشيع فيه الصدق فى الأقوال والأفعال لابد وأن يرقى ذُرا المجد، ويتبوأ المكانة الرفيعة. وما أحوج المسلمين أن يأخذوا أنفسهم بفضائل الإسلام وأن يعيشوا بها واقعهم ليسعدوا بها فى الحاضر والمستقبل. وليس هناك ما هو أدخل فى هذا المجال من الصدق وما يشيع فى المسلمين من أنماطه وصوره ومظاهره، وبقدر ما يكون المسلمون فى ذلك قريبين من الحق. مستقيمين على النهج بقدر ما يكونون جادين آمنين مطمئنين.

والصدق يعتبر من أهم المظاهر والأدلة على وجود الإيمان وأصالته ومن ثم تلمس له فى حياة المؤمنين ثقلا ووزناً ونتيجة وفاعلية تتوقف عليها حياة الناس، وتتحدد على ضوئها أقدارهم من الإيمان ومراكزهم فى الأمة. قال تعالى فى سورة الحجرات: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[1]. فالمؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله فنزل هذا الإيمان فى قلوبهم منزلة اليقين لا يزحزحه أى عارض من عوارض الحياة ولا يغير وجهه فى قلوبهم ما يلقاه على طريق الحياة. وأولئك هم المؤمنون حقاً الذين صدق فعلهم قولهم.

والصدق فضلا عما يحتوى فى رحابه كفضيلة كبرى من عوامل الالتزام وخلال الخير وخلائق البر، وكلمة الحق، يترك فى وجدان الآخذين به انطباعات يستشعرون بها راحتهم ويضع على أخلاق الموالين له بصمات حيوية، ويشع على سلوك العاكفين عليه انعكاسات مشرقة. عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم

(١) الحجرات: ١٥.

لسانه». ولقد كان من خير ما تعلمه الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه من ربه هتاف يدعو به إلى الله تعالى أن يجعل باعثه ومقصده الصدق فى كل شأن من شئونه، ويختم به كل عمل من أعماله. وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾[1]. وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين وبشر عباده أن لهم قدم صدق ومقعد صدق فقال ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾. وقال:[2] ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾[3].

فهذه خمسة أشياء، مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان صدق، ومقعد صدق، وقدم الصدق، وحقيقة الصدق فى هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأعمال والأقوال، فليس هناك كالصدق فضيلة جامعة يتألق فى ظلالها البر المحيط بالعقيدة والعمل والدين والحياة والأخلاق والسلوك والمجتمعات وكل ما يتصل بنهضة الأمة وتكوينها ومقوماتها وإعدادها، والصدق بهذه المثابة من النفس والإيمان والأخلاق وبهذا التأثير الحيوى على المشاعر والسلوك يعتبر فى طليعة الأمور التى تظل صاحبها بحسن نفعها يوم القيامة فضلاً عما يعطاه الصادقون من رفيع المنازل والدرجات. قال تعالى فى سورة المائدة: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[4].

---

(١) الإسراء: ٨٠.

(٢) يونس: ٢.

(٣) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٤) المائدة: ١١٩.

وفى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى: قال بعضهم: «أجمع الفقهاءُ والعلماءُ على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة. ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله فى الأعمال ، وطيب المطعم».

وإذا كان للصدق فى الإسلام كل هذه الآثار والنتائج فى الدنيا والآخرة. فما أحوج الأُمة الإسلامية أن تأْخذ نفسها به فى كل عمل وقول وخلق وسلوك. لتتمكن من جمع الأُمة الإسلامية على كلمة الحق، ولنعيد فى ثباتٍ وقوةٍ المجدَ الحضارىَ للمسلمين.

وأَىُّ أُمةٍ لا تصلح لها حياة، ولا يستقر لها وضع إلا إذا أخذت نفسها بالصدق، والتزمت به فغدت سديدة فى عملها، ومصيبة فى قولها. سوية فى تفكيرها، مستقيمة فى سلوكها مع ربها ومع نفسها ومع غيرها.

والصدق كفضيلة كبرى من عوامل الالتزام، ومطية البر، يترك فى وجدان الآخذين به انطباعات يستشعرون بها راحتهم وهدوءهم، ويضع عل أخلاق الموالين له علامات مضيئة، يجدون بها ثباتهم، ويشع على سلوك المؤمنين انعكاسات مشرقة يلمسون بها فى حياتهم من معالم الاستقرار والطمأْنينة ما يؤَهلهم إلى كل خير، ويهيئهم إلى كل نجاح.

* * *

obeikandl.com